كرونولوجيا الفكر الخوارجي في المغرب الإسلامي

أ/ خالد محجوب

أستاذ مساعد بكلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر 1

Research Summary

Represents the Kharijites(Rebels) in the West, a prominent element in the Islamic political-religious conflict between Muslims, which occurred in the past, which extended its effects to our time.

The researchers attributed the emergence of the Kharijites (Rebels) in the west to bad policy and she was followed by the rulers of the Umayyad with barbarians. Took advantage of the Kharijites(Rebels) defectors from the east this anger when the barbarians, and after a series of revolutions and bloody battles between the armies of the two authorities: the Umayyad and Abbasid, and the armies of rebels in the Muslim West emerged political entities new independent of each district of the Midwest and Far, and these entities are what is termed a "states Kharijites in the Muslim West "respectively: State Almadraria (Al-sufriyya) in 140 AH and Rustamiya (Ibadi) state in 161 AH.

عرفت الأمة الإسلامية بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أوضاعا متناقضة وتسارعا في الأحداث والوقائع، استقرار سياسي يعقبه اضطراب وصراع على الحكم، وفتح للبلدان يضاهيه انتشار للفتن وظهور للفِرق والمذاهب السياسية والعقدية، راحة مالية وامتلاء لخزينة الدولة، وانتشار لمظاهر البذخ وتوسع الحكام والأمراء في الإنفاق، احتجاج بالقدر لتبرير الظلم، نفي للقدر لتبرير العدل...وسط هذه الفسيفساء من الأحداث المتسارعة والمتناقضة، ظهرت في المشرق الإسلامي فرقة سياسية دينية، عُرفت باسم الخوارج أو المُحَكِّمة، وكان لها امتداد في مغربنا الإسلامي فيما بعد، ولازالت تداعيات هذا الفكر حاضرة في ذهنيات وممارسات كثير من المسلمين إلى يوم الناس هذا، وفي هذه المقالة سيحاول الباحث إماطة اللثام وتسليط الضوء على هذه الفرقة من حيث الظهور والامتداد والنتائج، ولأجل الخلوص إلى هذا المقصد جاءت خطة البحث على الشكل الآتي:

المبحث الأول: نشأة الخوارج

أولا/ الخوارج في السنة المطهرة

ثانيا/ مصير من نجى من الخوارج يوم النهروان

ثالثا/ خصائص الخوارج

المبحث الثاني: الخوارج في المغرب الإسلامي

أولا/ المغرب قبل ظهور الخوارج والحركات المذهبية

ثانيا/بداية الظهور

ثالثا/ أهم ثورات الخوارج الصفرية

رابعا/ نتائج ثورات الصفرية

1/الدولة المدرارية أو دولة بني واسول 140- 296هـ

أ/ السياسة الداخلية لدولة بني مدرار

ب/ السياسة الخارجية لدولة بني مدرار

علاقات العداء

علاقات الود والصداقة

2/ الدولة الرستمية الإباضية: 161-296هـ

أ/ تعريف الإباضية

ب/ أهم ثورات الخوارج الإباضية

ج/ قيام الدولة الرستمية الإباضية 161هـ-297هـ

سياسة بني رستم الداخلية

سياسة بني رستم الخارجية

الخاتمة: نتائج ظهور الفكر الخارجي في المغرب الإسلامي

المبحث الأول: نشأة الخوارج:

يبدو الأمر غريبا حين نقرأ كتابا بحجم "نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام" للأستاذ علي سامي النشار، ولا تجد فيه ذكرا لفرقة الخوارج التي تُعد من أقدم الفرق الإسلامية ظهورا، ومن أهمها تأثيرا في صناعة المشهد السياسي والعقدي والفلسفي في الساحة الإسلامية، حيث اكتفى الكاتب بتدوين سطر واحد عن هذه الفرقة حين حديثه عن العوامل السياسية التي أدت على ظهور التشيع فقال: " ونحن نعلم أيضا أن الخوارج بطوائفها المتعددة إنما نشأت عن عامل سياسي" وقبل هذا صرّح بدون مواربة أن الفكر والإبداع الفلسفي في الإسلام بدأ لدى المعتزلة، وأعقبهم الأشاعرة والشيعة، وعند هؤلاء فقط تكمن فلسفة الإسلام الحقيقية[1]، وإذا كنا في هذا المقام لا نصبو إلى محاسبة الكاتب على ما كتب أو ترك، إلا أننا نعتقد بوجوب الإشادة بدور الخوارج في بروز أكثر القضايا الدينية تعقيدا، وأمضاها أثرا في صناعة المشهد الاجتماعي والسياسي والفلسفي الإسلامي، ألا وهي قضية التكفير والخروج على الحكام بالسيف التي كان الخوارج روادها الأوائل،

حتى قال القاضي عياض: " وقد كادت هذه المسألة تكون [أشد] إشكالاً عند المتكلمين من سائر المسائل، ولقد رأيت أبا المعالي وقد رغب إليه الفقيه أبو محمد عبد الحق – رحمهما الله – في الكلام عليها فهرب له من ذلك، واعتذر له بأن الغلط فيها يصعب موقعه؛ لأن إدخال كافر في الملة أو إخراج مسلم منها عظيم في الدين، وقد اضطرب فيها قول القاضي ابن الطيب وناهيك به في علم الأصول، وأشار – أيضاً – القاضي – رحمه الله – إلى أنها من المعوصات"[2].

ولأننا نعتقد أن الخوارج الذين تم نعتهم في حديث ذي الخويصرة التميمي الذي سيتم ذكره فيما بعد، لم يبقوا على نفس الفكر ونفس الموقف الديني والسياسي، فمن الواجب علينا أن نبين ونحن في هذا المقام أن كثيرا من الخلافات السياسية التي تم الحكم عليها انطلاقا من النصوص القرآنية أو الأحاديث النبوية، لم تكن كذلك، وأن ما مارسه الخوارج الأوائل من تكفير للمسلمين واستباحة لدمائهم ليس أكثر جرما مما فعله الحكام الفاسدون المستبدون بمخالفيهم بحجة انتصارهم للسنة وحمايتهم للجماعة، حيث كانت الأحكام الانفعالية والمواقف المتطرفة شائعة جدا لدى المتنازعين في تعاملهم مع المشكلات الدينية والسياسية سواء كانوا من الحكام أو المحكومين.

ولأن خوارج المغرب الإسلامي يمثلون حلقة بارزة في الصراع الديني السياسي بين المسلمين، فقد رأينا أنه من الواجب علينا كباحثين ومهتمين بعالم الأفكار أن نوضح بعض القضايا العلمية المتعلقة بظهور هذه الفرقة في مغربنا الإسلامي، والتي سنبدأ تفصيل القول فيها بحديث النبي صلى الله عليه وسلم حول هذه الفرقة.

أولا/ الخوارج في السنة المطهرة:

أخرج الإمام مسلم حديث الخوارج في باب: ذكر الخوارج وصفاتهم بروايات وألفاظ متعددة عن جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري ومن هذه الروايات: رواية أبي سعيد قال: بينا نحن عند رسول الله وهو يقسم قسما أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال يا رسول الله اعدل! قال رسول الله: "ويلك ومن يعدل إن لم أعدل؟ قد خبتُ وخسرتُ إن لم أعدل" فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ائذن لي فيه أضرب عنقه قال رسول الله: "دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية...آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثلُ ثدي المرأة أو مثلُ البَضعة تَدَردر يخرجون على حين فُرقة من الناس" قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشهد أن علي ابن طالب قاتلهم وأنا معه فأَمر بذلك الرجل فالتُمس فوُجد فأُتي به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله الذي نعت[3]. وعرف ذلك اليوم في التاريخ الإسلامي، بيوم النهروان.

ثانيا/ مصير من نجى من الخوارج يوم النهروان:

تذكر الروايات أنه لم ينج من الخوارج يوم النهروان غير تسعة، صار منهم رجلان إلى سجستان ورجلان إلى اليمن ومن أتباعهما إباضية اليمن ورجلان صارا إلى عمان ومن أتباعهما خوارج عمان ورجلان صارا إلى ناحية الجزيرة ومن أتباعهما كان خوارج الجزيرة ورجل منهم صار إلى مكان يقال له "تل موزن"[4] ولا يعني هذا أن الخوارج قد انتهوا من الوجود أو أزيحوا من مسرح الأحداث بل الحقيقة أنهم قد أعادوا تجميع صفوفهم وخاضوا معارك شديدة ضد معاوية وجيوشه، وبعد نهاية خلافة ابنه يزيد سنة64هـ ظهرت للخوارج قيادات جديدة اعتبرت اللبنات الأولى لظهور الفرق المختلفة للخوارج كنافع بن الأزرق وعبد الله بن إباض ونجدة بن عامر وزياد بن الأصفر وغيرهم.

والجدير بالاهتمام أن عبد الله بن إباض وزياد بن الأصفر قد تابعا في البداية نافعا بن الأزرق ثم خالفاه وانشقا عنه لما رأوا من تكفيره لكل المسلمين وآرائه المتطرفة خاصة ما تعلق بقتل أطفال المشركين والقَعَدَة من أتباعه ومما أورده الطبري في تاريخه أن نافعا بن الأزرق كتب كتابا يدعوهما فيه إلى اتِّباعه واعتناق مبادئه في التكفير فرد عليه ابن إباض بأن القوم المخالفين لنا كفار بالنعم والأحكام وهم برآء من الشرك ولا تحل لنا إلا دماؤهم وما سوى ذلك من أموالهم فهو علينا حرام ورد عليه ابن الأصفر قائلا: برئ الله منك فقد قصرت وبرئ الله من ابن الأزرق فقد غلا ورد ابن إباض على ابن الأصفر قائلا: برئ الله منك ومن ابن الأزرق وتفرق القوم[5] وهنا تظهر لنا أول بادرة لتكفير الخوارج بعضهم بعضا وتبرئهم من بعضهم.

ثالثا/ خصائص الخوارج

أجمع المؤرخون والمتتبعون لأمر الخوارج، أنهم قد تميزوا بجملة من الخصائص وأهمها:

- عرفوا بعصبيتهم العربية حيث كانوا من القبائل الرِّبْعية المعروفة بالتعصب والحماسة والاندفاع السريع في آرائهم ويرى أحد الباحثين أن هذه الخصلة لم تكن السبب الدافع لخروج هؤلاء القراء عن الإمام حيث يقول: "لكن دورة قيام دول الخوارج تخرج عن طائلة النظرية الخلدونية التي تعتبر العصبية شرطا أساسيا في قيام الدول فقد تراكمت تجارب الخوارج في نجاح بعث الإمارات شرقا ومغربا دون الفعل العصبي وذلك بالاستناد أساسا على منظومة تفعل المبادئ القرآنية في اختيار الأتباع والأئمة دون أن تعطي للقرابة والنسب والعصب القبلي أي مجال للتدخل لا سيما في مرحلة بعث السلطة واختيار أولي الأمر الذين ينتخبون على أساس واحد وهو التفوق في مقياس التقوى كشرط قرآني تستند عليه كل الأحكام في الأحوال الشخصية والعلاقات العامة في المجتمع، وهذه النزعة عند الخوارج صفرية وإباضية وما تفرع عنهما هي الخصوصية الأرقى التي كرسوها عمليا وتفرقوا بها

على السنة والشيعة، تمكنوا بواسطة اعتماد فرض فصول التقوى كسب تعاطف العامة خاصة منهم المضطهدين والمهمشين وعامة المسلمين الطامعين في العدالة والمساواة بين بني البشر دون النظر إلى الأنساب والأصول"[6]

ومقابل هذا الرأي نجد رأيا لباحث آخر يرى أن مبادئ الخوارج وتطرفهم في إصدار الأحكام وتعديهم على أموال الناس وحرماتهم كان السبب الرئيس في كره الناس لهم وعدم التفافهم حول دعوتهم حيث يقول: " فضلا عن فقدان الخوارج لمصداقيتهم في نظر قطاعات عريضة من الشعوب الإسلامية وهو ما يمثل عاملا آخر إذ أن الخوارج قد أسهموا في إثارة الكراهية والسخط الشعبي ضدهم نتيجة ممارستهم القتل والتخريب والنهب"[7]

ويبدو أن كِلا الرأيين له جانب من الصواب وهامش من الخطأ: فالرأي الأول قد أصاب في قوله بأن الخوارج قد كسبوا تعاطف العامة خاصة منهم المضطهدين والمهمشين وعامة المسلمين الطامعين في العدالة والمساواة بين بني البشر دون النظر إلى الأنساب والأصول، ولكن هذا ليس على إطلاقه، بل نرى أنه مختص ببعض قبائل البربر التي وجدت في الدعوة الصفرية والإباضية متنفسا ومرجعا في الثورة على السلطة الأموية والعباسية، وهو ما لا نجده في المجتمع المشرقي الذي رفض وجود الخوارج بسبب مواقفهم الحدية واعتدائهم على عامة المسلمين الذين لا يرون رأيهم في خلافة عثمان وعلي، كما أن هذا الرأي قد جانب الموضوعية في قوله بأن طريقة الخوارج في اختيار الإمام هي الخصوصية الأرقى التي كرسوها عمليا وتفرقوا بها على أهل السنة، لأن الأمر هنا يتعلق بنص نبوي صحيح وصريح في أن الخلافة العظمى تكون في قريش، والقول بهذا الرأي يعتبر إهدارا لهذا النص الذي يعتبر حاكما على بقية النصوص المجيزة للخلافة في غير قريش وأنها خاصة بالخلافة الفرعية الصغرى، أو انعدام شروط الإمامة في القرشي، أو الغلبة لغير القرشي...

أما الرأي الثاني فيقال عنه ما قيل في الأول، وهو أن الحكم بفقدان المصداقية بسبب المواقف المتطرفة ليس على إطلاقه بل هو خاص بالمجتمع المشرقي الرافض للخوارج، بعدما رأى منهم تلك الأعمال المشينة والمواقف المتطرفة والآراء البعيدة عن مذهب أهل السنة والجماعة، والدليل على ذلك ما وجدوه من قبول لدى قبائل البربر في المغرب ولدى قطاع عريض من الشعوب العربية في الكوفة والبصرة واليمن وغيرها.

- عرفوا بتمسكهم بظواهر الألفاظ القرآنية دون فهم المعنى والمرمى، وهذا أيضا ليس على إطلاقه إذ فيهم العلماء والمفسرون والمحدثون كجابر بن زيد المُنظر الحقيقي للمذهب الإباضي، والربيع بن حبيب الفراهيدي صاحب المسند، وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم.
- تميزوا بالتشدد في العبادة الذي يظهر في جباههم المقرحة وأيديهم التي تشبه نفثات الإبل، وهذا ليس بعيب يلام صاحبه، إلا إذا ابتدع في العبادة، وأتى فيها بما لم يشرع الله.
- عرفوا بالإخلاص الشديد لعقيدتهم والشجاعة في حروبهم وهذا ما جعل مواجهتهم صعبة على الدولة الأموية خاصة وأنهم كانوا فرعين: أحدهما بالعراق وما حولها وكان أهم مركز لهم "البطائح" بالقرب من البصرة، وقد اشتهر من رجالهم "نافع بن الأزرق وقطري بن الفجاءة" والفرع الآخر كان بجزيرة العرب واستولوا على اليمامة وحضر موت واليمن والطائف، ومن أشهر أمرائهم فيها أبو طالوت ونجدة بن عامر وأبو فديك.
- تميزوا بكثرة اختلافهم وتكفيرهم لبعضهم بمجرد اختلافهم في الرأي ويعد هذا من أهم أسباب إخفاق حركاتهم وفشل ثوراتهم –كما سنراه فيما بعد حين الحديث عن قيام الدولتين المدرارية والرستمية–

المبحث الثاني: الخوارج في المغرب الإسلامي

أولا/ المغرب قبل ظهور الخوارج والحركات المذهبية

يقطن المغربَ العربي قبائلُ الأمازيغ والبربر، وهم الجماعة التي أقامت منذ أحقاب بعيدة في الشمال الإفريقي في الأرض الممتدة من برقة شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً ، وهذه المنطقة أطلق عليها لفظة المغرب بمدلولها العام.

يمتاز غالبية الأمازيغ بطبعهم المتشدد، وقد دخلوا في دين الله أفواجاً مع الفتح الإسلامي ، وأبلوا بلاءً حسناً في نصرة الدين الإسلامي منذ الفتح، ولعبوا أدواراً هامة جداً في التاريخ العربي والإسلامي في شمال إفريقيا وغربها وكذلك في الأندلس، ويعود أول اتصال لهم مع الإسلام إلى عام 22 هـ عندما وفد على عمرو بن العاص بعد فتح مصر جماعة من أهالي (برقة) يطلبون الاحتماء بالإسلام من ظلم البيزنطيين ، وعندما نقل ابن العاص طلبهم إلى الخليفة عمر بن الخطاب أذن له بالاستجابة إليهم ، فشكل ابن العاص قوة عسكرية خاصة ، وأمَّر عليها ابن خالته (عقبة بن نافع) الذي تمكن من تحرير (برقة وطرابلس الغرب) ونشر الإسلام بين قبائلها الأمازيغية , ثم توقفت العمليات العسكرية غربا بفعل قرار من المدينة، وفي هذه الأثناء كان الضغط البيزنطي يشتد على قبائل الأمازيغ ، وكانت الثورات الأمازيغية تعمّ المناطق التي تعرف

اليوم بالجزائر والمغرب ، ولم يستأنف الإسلام تمدده إلا في عام 49 هـ حيث تمت تولية عقبة بن نافع على إفريقية التي اختط فيها في العام التالي مدينة القيروان عاصمة تنطلق منها الفتوح في الشمال الإفريقي.

كانت الأوضاع في المغرب الإسلامي متردية بعد الفتح، بفعل الصراعات الداخلية بين الولاة من جهة، ثم بين العناصر المشرقية والعناصر المغربية من جهة أخرى، وبلغ الصراع العنصري أشده في عام 122هـ فيما عرف بالفتنة المغربية الكبرى التي كانت –حسب بعض المؤرخين– بإيعاز من الخوارج الفارين من المشرق خاصة مع سوء سياسة ولاة بني أمية وعدم إدراك الأمويين لطبيعة البربر وهم السكان الأصليون للبلاد وإنكارهم للدور الكبير الذي قاموا به في عمليات الفتوح وما يستتبع ذلك من المساواة في المعاملة وفي الحقوق والواجبات، كما تطلع البربر من جانبهم إلى الحصول على نصيبهم من العطاء ما داموا مسلمين يحاربون جنبا إلى جنب مع العرب، ورأوا أنهم لم يكافؤوا على ما قدموه من خدمات كما كانوا يأملون ولم يعاملهم العرب معاملة النظير للنظير، وهم في الوقت نفسه غير مستعدين للسماح للعرب بمشاركتهم خيرات بلادهم مشاركة كاملة، وينكرون عليهم الاستئثار بالسيادة فيها دون حساب، وقد استغل الخوارج الفارين من الشرق هذه الأوضاع وهذا الاحتقان من جانب البربر فتغلغلوا في صفوف البربر وأخذوا يحرضونهم على الثورة ضد ما يقع عليهم من ظلم، ويبينون لهم حقوقهم في دولة الإسلام التي أصبحوا مواطنين فيها، وقد وجد الخوارج في هؤلاء البربر النفوس المستعدة لقبول تعاليمهم التي تناسب نزعاتهم، ولذلك كانوا يأملون في أن يجدوا في شمالي إفريقيا الأرضية الصالحة لزرع تعاليمهم وتأسيس دولة تناهض السلطة القائمة في المشرق.

وقد تمخض عن الثورات التي قامت في تلك المنطقة وتراجع قوة السلطة المركزية المشرقية بروز كيانات سياسية استقلت كل منها بناحية من المغربين الأوسط والأقصى، وهذه الكيانات السياسية هي ما يسمى "حركات الخوارج في المغرب الإسلامي" وهي على التوالي: الدولة المدرارية الصفرية والدولة الرستمية الإباضية اللتين تأسستا نتيجة لعدة عوامل منها:

–سياسة ولاة الأمويين التي أثارت موجة من السخط في أوساط البربر.

–الفتن السياسية الناجمة عن الخصومات القبلية بين القيسية واليمنية من العرب الفاتحين، ذلك أن غالبية العرب الفاتحين كانوا يمنية وهم الذين آزروا موسى بن نصير خلال ولايته إلى أن عزله الخليفة سليمان بن عبد الملك واستبدله بمحمد بن يزيد الذي كان قيسيا، فجعل همه وشغله الشاغل تصفية نفوذ آل موسى فبطش بهم واستولى على أموالهم، ثم آلت الولاية بعده إلى بشر بن صفوان المتميز بشدة عصبيته لليمنية فأمعن هو الآخر في اضطهاد القيسية، وقد شكلت هذه الفتن عوامل نفور وسخط لدى قطاع عريض من البربر وهو ما أوجد بذور الخروج على هؤلاء الولاة واستبدالهم بالأصلح والأنسب.

-إلى جانب هذه الفتن والخصومات القبلية كان هؤلاء الولاة يتنافسون في جمع الأموال بالسلب والنهب وسبي نساء البربر، وإرسالهم كجواري إلى الحكام بالمشرق، ويُجمع كثير من المؤرخين على سوء معاملة عمال العصر الأموي الأخير للبربر وإرهاقهم بالغرامات والجبايات والجزيات حتى بعد دخولهم في الإسلام.

-حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز رد الاعتبار للبربر من خلال سياسته العادلة معهم، ولكن ذلك انتهى بوفاته وعادت الأمور إلى ما كانت عليه من ظلم واستبداد، واشتط الوالي الأموي يزيد بن أبي مسلم في معاملة البربر وأهدر كبرياءهم حين وسم حرسه من البربر في اليد اليمنى واليسرى بالاسم والوظيفة، كما قام والٍ آخر بسلب البربر المسلمين وسبي نسائهم في أقاصي المغرب واعتبرهم فيئا وعاملهم معاملة الرقيق رغم إسلامهم، فهذه التصرفات وغيرها تسببت في إثارة مشاعر الحقد والكراهية عند البربر مما أوجد مناخا ملائما لانتشار مذهب الخوارج هناك، ذلك أن البربر المسلمون وجدوا تناقضا صارخا بين تعاليم الإسلام ومبادئه التي بشر بها الفاتحون بما تنطوي عليه من عدل ومساواة، وبين سياسة الولاة الأمويين الأواخر الجائرة فأقبلوا على اعتناق مذهب الخوارج الداعي إلى الثورة على الحاكم الظالم.

وخلاصة القول أن أحوال بلاد المغرب في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني قد ساعدت على نزوح الخوارج المضطهدين في المشرق إلى بلاد المغرب لنشر دعوتهم بين البربر المضطهدين أيضا وتحقيق ما فشلوا فيه من قبل من أهداف.

ثانيا/بداية الظهور

إذا كانت بداية ظهور الخوارج كمذهب عقدي معارض سياسيا يعود إلى اليوم الذي اعتزلوا فيه جيش علي في معركة صفين وتجمعوا في حاروراء -كما ذكرنا سابقا- فإن هذه البداية كانت تمثل مفترق طرق لهؤلاء القراء "الخوارج" الذين تنوعت بفراقهم الأمة الإسلامية إلى فرق ومذاهب وانتشرت آراؤهم في العقيدة والسياسة واعتنقها كثير من المسلمين في بقاع كثيرة من أرض الإسلام.

"فالرموز الذين نجدهم في النهروان من القراء الذين خرجوا على علي أو اختاروا نظاما غير نظام الشورى وغير نظام الإمامة حكرا على آل البيت هم الذين سيشكلون الدعامة التي ستظهر تباعا في البصرة والأهواز وسجستان وعمان والمغرب"[8]

وتذكر كتب التاريخ والفرق أن الخوارج قد انقسموا إلى عشرين فرقة[9] يجمعها كلها القول بتكفير علي وعثمان ومعاوية وأصحاب الجمل والحكمين ومن رضي بحكم الحكمين كما يجتمعون على القول بخلود المذنبين من أمة محمد في النار.

والذي يهمنا من تلك الفرق كلها فرقتين ظهرتا في المغرب العربي كحركات مذهبية سياسية استولتا على الحكم واستقلتا عن الخلافة الإسلامية وهما فرقتا الصفرية والإباضية، حيث تعود البدايات الأولى لظهور هاتين الفرقتين إلى نهايات القرن الأول وبدايات القرن الثاني الهجريين حينما حل كل من سلمة بن سعيد الإباضي[10] وعكرمة الصفري مولى ابن عباس[11] كما يُرجع كثير من الدارسين ظهور هاتين الفرقتين في المغرب إلى عاملين–كما ذكرنا سابقا–:

الأول: التطور السياسي الذي حدث لخوارج المشرق في أواخر القرن الأول بعد فشل ثوراتهم وتعرضهم للمطاردة والاضطهاد من قبل حكام بني أمية.

الثاني: ملاءمة الأحوال السياسية والاجتماعية في بلاد المغرب في أواخر القرن الأول لتقبل هذا المذهب[12] وسنفرد لكل حركة منهما فصلا مستقلا للحديث عن نشاطها ونتائجه على المستوى المحلي والإقليمي.

ثالثا/ أهم ثورات الخوارج الصفرية

الصفرية هم أتباع زياد بن الأصفر أو عبد الله بن صفار، كفَّروا مرتكبي الكبائر وقالوا بأن مخالفيهم مشركون إلا أنهم لا يرون قتل أولادهم ونسائهم، كما نادوا بجواز التقية في القول دون العمل وهو ما يمثل جنوحا نحو الاعتدال مما ساعدهم على معايشة جماعة المسلمين والقدرة على الدعوة السرية المنظمة بخلاف ما كان عليه أوائلهم من المحكمة الأولى والأزارقة، الذين جنوا على أنفسهم وعلى دعوتهم بسبب مواقفهم المتطرفة المعلنة، ولذلك قال عنهم المستشرق فلهوزن: "إن سياسة الخوارج لم تكن سياسية"[13]

يعتبر عكرمة مولى ابن عباس هو صاحب الدعوة الصفرية في شمال إفريقيا بأكملها، وهو ملقن ميسرة المطغري وشيخ مكناسة أبو القاسم سمكو بن واسول وطريف بن شمعون وأبو قرة اليفرني أسس الدعوة الصفرية انطلاقا من القيروان.

كانت القبائل الصفرية سباقة إلى مرحلة الظهور وإعلان الثورة على مركز الولاية الأموية في القيروان بقيادة ميسرة المطغري عام121هـ وقد ساعدهم في ذلك بعدهم عن مركز الولاية فقام ميسرة بالسيطرة على المغرب الأقصى واقتطاعه من القيروان.

–حاول الوالي الأموي ابن الحبحاب القضاء على الثورة الصفرية فسار إليهم بجيش كبير ولكنه مني بهزيمة نكراء في معركة قتل فيها الكثير من العرب سميت بمعركة الأشراف

–قام بعدها بإرسال جيش قوامه 30ألفا للثأر وتأديب الصفرية ولكن الجيش لم يكن متجانسا ودب الخلاف بين قادته وكان ذلك سببا في هزيمته مرة أخرى أمام الصفرية سنة 123هـ

– أحس الصفرية بالزهو والقوة فوسعوا نشاطهم نحو المغرب الأوسط والأدنى بهدف الإستيلاء على القيروان مقر الولاية الأموية، لكن الخليفة هشام بن عبد الملك أرسل إليهم جيشا آخر قوامه 30 ألف مقاتل التقى بالصفرية في معركتي القرن والأصنام وألحق بهم هزيمة نكراء وهو ما حال دون وقوع القيروان في أيدي الصفرية.

– بعد وفاة هشام بن عبد الملك عاود الصفرية تجميع قواتهم واغتنموا فرصة انتقال الخلافة إلى العباسيين فقاموا بمعارك كثيرة أسفرت على سيطرتهم على القيروان وبذلك أصبحوا يمثلون خطرا على بلاد المغرب الأدنى التي كانت الغلبة فيها لأنصار المذهب الإباضي، وهو ما لم يرض به قادة هذا المذهب فقام أبو الخطاب بن السمح المعافري بالإستيلاء على القيروان وطرد الصفرية منها وكان ذلك سنة 140هـ وولى عليها عبد الرحمن بن رستم.

–بعد الهزيمة التي تلقاها الصفرية على يد الإباضية انسحبوا إلى المغرب الأقصى فقام أبو قرة الصفري بتأسيس أمارة مستقلة بنواحي تلمسان لكنها لم تدم طويلا، كما تمكن أبو القاسم سمكو بن واسول من إرساء دعائم دولة بني مدرار في سجلماسة سنة 140هـ.

رابعا/ نتائج ثورات الصفرية

1/الدولة المدرارية أو دولة بني واسول 140– 296هـ

هي دولة خارجية صفرية عاصمتها مدينة سجلماسة الواقعة في جنوب المغرب الأقصى أسسها عيسى بن يزيد الأسود المكناسي[14] من موالي العرب والتف حوله أهل تلك الصحراء من مكناسة بزعامة أبي القاسم سمكو بن واسول الملقب ب "مدرار" بالإضافة إلى جماعات بربرية ثائرة وكانوا يدينون بالمذهب الصفري. بايع الجميع عيسى بن يزيد بالإمامة عام 140هـ. وقد بدا للمؤرخين أن هذه البيعة كانت مرتبطة بتفوق العنصر السوداني على سائر العناصر الأخرى في هذا الإقليم، وأمارة ذلك أنه عندما استقرت الجماعة الصفرية في هذا المكان استدعى أبو القاسم سمكو بن واسول[15] قومه من المكناسيين للاستقرار فيه، ويبدوا أنه كان ذا نزعات سلطوية فتطلع إلى السلطة وأخذ يتحين الفرصة للتخلص من عيسى بن يزيد، فلفق له تهمة وعزله عن الحكم ثم قتل عام 155هـ. وتذكر المصادر التاريخية أن ابن واسول كان يحقد على ابن يزيد بسبب تشدده في المذهب الصفري ولذلك لما تولى الإمارة بعده حولها إلى إمارة وراثية في أسرته ولم يكن يحفل كثيرا بتطبيق مبادئ المذهب كما لم يهتم بالصفرية خارج بلاده.

اختط بنو مدرار مدينة سجلماسة في مكان حصين وسط الصحراء حيث يستطيعون التوسع فيما بعد بعيدا عن سلطة العباسيين في القيروان، وقاموا بعدة إنجازات على المستوى العمراني والزراعي والتجاري، وبذلك أضحت سجلماسة سوقا تجاريا كبيرا، وقد أغرى هذا الازدهار الصفرية في أنحاء بلاد المغرب إلى الرحيل إليها والاستقرار فيها، فأضحت بذلك مركز دعوة ومستقر جماعة دينية على المذهب الصفري الخارجي.

على المستوى السياسي، حكم أبو القاسم سمكو اثني عشر سنة ولما توفي خلفه ابنه إلياس[16] فلم يرض الناس حكمه فخلعوه –بعد أن دام حكمه ست سنوات[17]– وولوا مكانه أخاه اليسع[18] الذي كان متصفا بالحماس الشديد للمذهب الصفري.

أتم اليسع بناء سجلماسة واختط بها المصانع والقصور ووسع نطاق الدولة فشملت جزء كبيرا من وادي درعة ولكنه فشل في التوسع على حساب دولة الأدارسة –الشيعية– في إقليم تلمسان وأقام علاقات حسنة مع الدولة الرستمية الإباضية في تاهرت تُوِّجت بزواج ابنه مدرار من أروى ابنة عبد الرحمن بن رستم أمير تاهرت.

توفي اليسع عام 208هـ وخلفه ابنه مدرار "المنتصر"[19] وفي عهده بدأ تدهور الدولة ومع ذلك حكم 44سنة انتهت باعتزاله الحكم سنة 252هـ وقد خلَّف ولدان اسم كل منهما ميمون، أحدهما من أروى الرستمية ويلقب بابن الرستمية، والثاني من زوجة تدعى بقية فعرف ابنها بابن بقية كما عرف ب"ميمون الأمير"، وقد نشأ بين الأخوان صراع على السلطة دام 3أعوام ولم يستطع المنتصر حسمه على الرغم من مساندته لابن الرستمية، واضطر أخيرا إلى طرد ابن بقية.

أغضب هذا التصرف شيوخ الصفرية لأنهم ساندوا ابن بقية وعدوا تصرف المنتصر انتهاكا لتعاليم المذهب، كما انتابتهم الخشية من وقوع البلاد تحت سيطرة الإباضية، فخلعوا ابن الرستمية وولوا ابن بقية وبقي يحكم البلاد حتى وفاته في عام263هـ فخلفه ابنه محمد الذي توفي عام 270هـ ثم خلفه اليسع بن المنتصر –هكذا يدعى– واشتدت في عهده رياح الدعوة الفاطمية التي عصفت بحكمه وأدخلت سجلماسة في صراع مع حكم الدولة الفاطمية الناشئة بقيادة عبيد الله المهدي الفاطمي.

أ/ السياسة الداخلية لدولة بني مدرار

- ساهم العاملين العنصري والديني بدرجة كبيرة في تحديد السياسة الداخلية لدولة بني مدرار، والدليل على ذلك أن الصراع القبلي والخلاف المذهبي كان لهما الدور الأساس في تعيين الأمراء وعزلهم وقيام الثورات والفتن، واحتدام المنازعات بين أفراد البيت المدراري كما حدث بين إلياس واليسع ابني القاسم وما حدث بين أبناء مدرار بن اليسع وهما ابن الرستمية وابن بقية.

- الصراع العنصري: يظهر هذا الصراع في تقلد عيسى بن يزيد الأسود المكناسي الحكم بسبب تفوق العنصر السوداني، ثم هجرة قبائل مكناسة إلى سجلماسة كان له أكبر الأثر في انتقال الحكم إلى ابن واسول.
- ساهم الإباضية في إثارة الفتن داخل الدولة المدرارية ويظهر ذلك في محاولة استقلالهم بنواحي درعة الشهيرة بمعادنها، وإرسالهم لأموال الزكاة إلى حاكمهم في تاهرت، فقام اليسع بإخماد ثورتهم في مهدها وأحكم سيطرته على أطراف دولته، مما دفع بإباضية تاهرت إلى السعي لكسب وده ليأمنوا جانبه وليضمنوا الإستقرار لإخوانهم في سجلماسة عن طريق المصاهرة التي تمت بين ابن رستم ومدرار ابن اليسع، وبهذا استكان الإباضية لحكم أبي المنصور اليسع ودانوا بطاعته حتى وفاته سنة 208هـ.
- عاد الصراع المذهبي في عهد مدرار المنتصر بعد أن أعطى ولاية العهد لابنه ميمون بن الرستمية مما شكل تفوقا لإباضية سجلماسة وهو ما لم يرض به الصفرية الذين خلعوه وولوا مكانه أخاه ميمون بن بقية ولقبوه بالأمير.
- ذكر ابن خلدون أن ميمون الأمير كان مستبدا في حكمه، وكان مضطرا إلى ذلك لمواجهة فتن الإباضية ومؤامراتهم، وقد عرف عهده استأصال شأفة الإباضية من تلك الأصقاع، ولم ينقل التاريخ أي حركة لهم خلال فترة حكمه التي دامت إلى سنة 270هـ

ب/ السياسة الخارجية لبني مدرار

لاحظنا في المبحث السابق أن همَّ أمراء بني مدرار كان منصرفا إلى تحقيق الاستقرار الداخلي بالحفاظ على الاستقلال السياسي والمذهب الديني والمصالح الاقتصادية ومع ذلك كانت سياستهم الخارجية –رغم ضمورها– تسير في اتجاهين بارزين:علاقات عدائية تجاه الخلافة العباسية ودولة الأغالبة ودولة الأدارسة وعلاقات ودية مع بني رستم والأمويين بالأندلس.

علاقات العداء

–سبب العداء مع الخلافة يعود إلى عقيدة الخوارج في إبطال إمامة بني العباس باعتبارهم مغتصبين للخلافة، وحيث لم يكن بمقدور الصفرية عزلهم أو مقاتلتهم فلا أقل من مناصبتهم العداء، وإنكار شرعية إمامتهم، ومشايعة أعدائهم من بني أمية بالأندلس من منطلق "عدو عدوي صديقي"

-أما العداء مع الأغالبة فكان مرده إلى أن هذه الأخيرة كانت تشكل امتدادا للخلافة العباسية بإفريقية رغم استقلالها الذاتي، ولكن هذا العداء لم يصل إلى درجة التناحر بسبب بعد المسافة واهتمام كل دولة بمشاكلها وشؤونها الداخلية، ومن أسباب العداء مع الأغالبة ما تعرض له صفرية إفريقية من اضطهاد وبطش بالقيروان خاصة بعد تولي سحنون قضاء القيروان.

- وأما العداء مع الأدارسة فقد كان مرده إلى أمرين:

الأول: دولة الأدارسة شيعية قامت بالمغرب الأقصى سنة 172هـ وكان هذا القيام على حساب نفوذ الصفرية في المغرب.

الثاني: ما قام به الأدارسة من حملات لاستئصال شأفة صفرية تلمسان من بني يفرن الزناتيين، وعدم قدرة صفرية سجلماسة على مد يد العون لإخوانهم، بسبب استحالة الاتصال بينهم لأن الطريق إليهم يمر عبر أراضي الدولة الإدريسية التي كانوا معادين لها.

علاقات الود والصداقة: كانت هذه العلاقات مع الرستميين والأمويين بالأندلس.

-سبب العلاقات الودية مع الرستميين يرجع إلى المواقف السياسة المتمثلة في العداء الذي أبداه الطرفان لبني العباس وعمالهم بالقيروان، بالإضافة إلى اختلاط قبائلهم وأتباعهم، والملاحظ أن هذه العلاقات بقيت في إطار تجنب الخصومة والقتال ولم تصل إلى درجة التحالف بسبب الخلاف المذهبي بين الدولتين.

- سبب العلاقات الودية مع أمويو الأندلس هو العداء المشترك للخلافة العباسية والأغالبة والأدارسة

الخلاصة: أن علاقات بني مدرار الخارجية تأثرت بظروفها السياسية ومصالحها الاقتصادية وطبيعتها الجغرافية ومذهبها الديني.

2/ الدولة الرستمية الإباضية: 161-296هـ

أ/ تعريف الإباضية:

هم أتباع عبد الله بن إباض[20] سموا مخالفيهم كفار نعمة وأجازوا شهادتهم وحرموا دماءهم في السر واستحلوها في العلانية وصححوا مناكحتهم والتوارث منهم وهذا ما جعل كثيرا من المؤرخين والدارسين يحكمون على الإباضية بالاعتدال النسبي والقرب من أهل السنة والجماعة وقد ذهب الدكتور عامر النجار إلى أن الإباضية كانوا أشداء على الخوارج من خلال ما نقله من نصوص للعالم أبي يعقوب الورجلاني الإباضي يدين فيها الخوارج والأزارقة بشكل خاص، بل إن أحد علمائهم[21] يرى بأن السبب في إلصاق تهمة

الخروج بالإباضية يعود إلى سياسة الدولة الأموية في التشنيع على الإباضية لتنفير الناس من مذهبهم لما وجدوه من صلابة في مواقفهم تجاه الدولة الأموية، ولأن الإباضية أنكروا التحكيم ورفضوا مبدأ القرشية في إمامة المسلمين وهو ما تقول به الخوارج، فقد قام كتاب المقالات بنسبة كل ما تقول به الخوارج إلى الإباضية وهو ما يعد تعميما بعيدا عن الموضوعية والإنصاف.

يرجع الفضل في تنظيم أسلوب الدعوة الإباضية إلى جابر بن زيد[22] بل يعتبره بعض الإباضية أول أئمتهم، ولما توفي خلفه تلميذه أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة[23] الذي اهتم ببلاد المغرب ورأى فيها ميدانا خصبا لنشر المذهب الإباضي فبعث بداعيته سلمة بن سعيد في بداية القرن الثاني لنشر الدعوة الإباضية والذي اتخذ من بلاد المغرب الأدنى ميدانا لنشاطه واستطاع أن يكسب أنصارا في إقليم طرابلس وجبل نفوسة الذي أصبح فيما بعد "دار هجرة " لأنصار المذهب الإباضي في بلاد المغرب وانتشر بعدها إلى بقية القبائل مثل هوارة ولماية وزناتة وسدراتة...

واصل علماء المذهب جهودهم في تثبيت دعائم المذهب ولما اشتد ساعدهم عقدوا العزم على إعلان إمامة الظهور سنة 140هـ وهي السنة التي شرع فيها الصفرية في إقامة دولتهم بسجلماسة جنوب المغرب، وهكذا أصبحت بلاد المغرب معقلا لنشاط الخوارج بعد انتشار المذهب الصفري بين بربر المغرب الأقصى وبعض نواحي المغرب الأوسط، والإباضي في المغربين الأدنى والأوسط، وبدأ الخوارج حقبة جديدة في تاريخ البلاد عمت الثورات كافة ربوعها.

ب/ أهم ثورات الخوارج الإباضية

لم يتهيأ الإباضية للظهور إلا بعد قيام ثورة أبي الخطاب المعافري[24] سنة 140هـ وسبب تأخرهم في الظهور يعود إلى قرب موطنهم من القيروان مقر الإمارة الأموية.

- قامت ثلاث ثورات للإباضية قبل ثورة أبي الخطاب لكنها باءت كلها بالفشل بسبب ضعف التخطيط وقلة العدد والعدة بالإضافة إلى الصراعات الداخلية التي كانت تنجر عن الخلاف في الرأي بين زعماء الإباضية ويتعلق الأمر بثورة 126هـ بزعامة عبد الله بن مسعود التجيبي الذي ترأس هوارة طرابلس، وثورة الزعيمين عبد الجبار بن قيس والحارث بن تليد اللذين اقتتلا فيما بينهما وساهما بذلك في إجهاض الثورة في مهدها سنة 131هـ وثورة قبيلة نفوسة بقيادة زعيمها إسماعيل بن زياد النفوسي التي تم القضاء عليها بسهولة سنة 132هـ
- فشل هذه الثورات دفع بزعماء الإباضية إلى إعادة التفكير في طرق المواجهة فاتجهوا إلى المشرق للإسترشاد بآراء مشايخ المذهب في الإعداد للثورة الشاملة المنظمة وقد اتفقوا على اتخاذ أبي

الخطاب المعافري زعيما للثورة عند إعلان إمامة الظهور، وأن لا يعلنوا هذه الإمامة إلا بعد حشد القوى المادية والبشرية للقيام بالثورة.

- لما توفرت الظروف لإعلان الثورة أجمع رؤساء المذهب على مبايعة أبي الخطاب المعافري بالإمامة، وانضوت تحت لوائه قبائل نفوسة وزناتة وهوارة فاستولى على طرابلس واتخذها قاعدة لإمامة الظهور، أخذ يتوسع منها حتى دانت لحكمه كل بلاد المغرب الأدنى.
- بعد ذلك توجه أبو الخطاب نحو القيروان وخلصها من حكم الصفرية وأمر عليها عبد الرحمن بن رستم، وانطلق لمواجهة جيوش الخلافة العباسية في إفريقية
- كانت الجيوش التي أرسلها المنصور تفوق الخمسين ألف مقاتل وقد جعل على رأسها القائد محمد بن الأشعث الخزاعي، وقد التقى مع الجيش الإباضي الذي كان يضم سبعين ألف مقاتل في المكان المسمى تاورغا قرب سرت شرق طرابلس وهناك دارت الدائرة على الإباضية وهزموا شر هزيمة فقتل قائدهم أبو الخطاب ونجا منهم نفر قليل لاذوا فرارا بالجبال والقلاع.
- واصل ابن الأشعث سياسة التقتيل والسلب من أجل استئصال الإباضية من المغرب الأدنى، ولم يفرق في ذلك بين من شارك في الحرب ومن اعتزلها كقبائل زناتة.
- وضعت معركة تاورغا سنة 144هـ حدا لإمامة الظهور التي دامت أربع سنوات، فاضطر الإباضية إلى العمل في الستر والكتمان فيما يعرف لديهم بإمامة الدفاع التي تولى زعامتها أبو حاتم الملزوزي[25] بداية من سنة 145هـ.
- بعد خمس سنوات عاود أبو حاتم الملزوزي من إباضية نفوسة إعلان الثورة على ولاة الدولة العباسية، ودارت بين الإباضية وجيوش الدولة العباسية عدة معارك انتهت بمقتل أبي حاتم والكثير من أتباعه سنة 155هـ، وقد شكلت هذه الضربة نهاية لنشاط الإباضية في صورته الشاملة المنظمة وإن بقيت هناك بعض الثورات التي كانت تقوم هنا وهناك ولكنها تميزت بالضعف وانعدام التنظيم والشمول.

في الوقت الذي تصدعت فيه ثورات الإباضية في المغرب الأدنى وإفريقية استطاع عبد الرحمن بن رستم[26] تأسيس إمارة مستقلة في المغرب الأوسط بتاهرت سنة 161هـ وقد امتد نفوذ دولته إلى إباضية المغرب جميعا فدانوا له ولدولته الرستمية بالولاء والتبعية.

ج/ قيام الدولة الرستمية الإباضية 161هـ-297هـ

–حرص الإباضية على أن يكون موضع دولتهم في مكان قابل للعمارة يحوي شروط الحياة من كثرة مياه وخصوبة أرض وجودة هواء وأن يكون مأمونا من وصول الأعداء إليهم، فوجدوا هذه الشروط متوفرة في موضع تاهرت الذي كانت تقطنه قبائل صنهاجة.

–بادر الإباضية باختطاط مدينة تاهرت سنة 161هـ وبدؤوا ببناء المسجد الجامع، ثم تلوه ببناء القصور والبيوت والأسواق، ثم حصنوا المدينة ببناء سور حولها، وبذلك أضحت تاهرت عاصمة للدولة الرستمية وأطلق عليها اسم "المعسكر المبارك"

– اختلف المؤرخون حول الوقت الذي بويع فيه لابن رستم بالخلافة، والظاهر أنه بويع مرتين: الأولى بعد موت أبي الخطاب سنة 144هـ[27]، ونزوله على إباضية المغرب الأوسط وكانت هذه المبايعة على أنه " إمام دفاع"، والثانية كانت سنة 162هـ بعد تأسيس مدينة تاهرت، وكانت مبايعته فيها على أنه " إمام ظهور"

– التزم ابن رستم على سياسة المهادنة مع الخارج فحرص على مسالمة عمال بني العباس في إفريقية، كما صاهر اليسع ابن أبي القاسم سمكو رغبة في مسالمة دولة بني مدرار الصفرية.

– استعان ابن رستم في تنمية دولته داخليا بما كان يصله من أموال من إباضية المشرق خاصة بعدما رأوا من عدله وورعه، فخصص جزء من تلك الأموال لتسليح رجاله من الإباضية، وتمكن بفضلهم من بسط سيادة دولته على كل قبائل البربر الضاربة في حدودها.

– أولى ابن رستم النواحي الاقتصادية والعمرانية اهتماما كبيرا، فصارت تاهرت قبلة للتجار من سائر أرجاء العالم الإسلامي، فازدهرت العاصمة اقتصاديا وساهم هذا الازدهار في تدعيم أركان الدولة الرستمية، التي صارت ترفض المعونات المالية التي تأتيها من إباضية المشرق.

–حرصا من ابن رستم على استقرار دولته فقد أوصى قبل وفاته بتعيين مجلس شورى يختار إمام الدولة من بين أعضائه، وبهذا نجح ابن رستم في إقامة دولة إباضية مستقلة في تاهرت ضمت معظم أقاليم المغربين الأدنى والأوسط، ودام حكمها حوالي القرن وربع القرن.

– لم يستطع الأئمة من آل ابن رستم الحفاظ على الاستقرار الذي حققه المؤسس، فكانت فترات حكمهم متميزة بالصراعات الداخلية والاختلافات الفقهية المذهبية، بالإضافة إلى الصراعات القبلية والعنصرية، ولعل أهم أسباب عدم الاستقرار هو تحول الإمامة من مبدأ الاختيار إلى فكرة التنصيب بالتوريث وهو الأمر الذي أنكره الخوارج على حكام بني أمية.

ومن أسباب عدم الاستقرار ظهور سياسة التمييز العنصري التي حصرت وظائف الدولة في عناصر معينة – نفوسة والعجم– مما شكل خروجا عن تعاليم المذهب الإباضي وتمزقا للرباط الذي جمع العناصر والعصبيات

المختلفة تحت مظلته، فظهرت الثورات الداخلية على أئمة بني رستم وعلى رأسها حركة ابن فندين وجماعته سميت جماعة "النكار" أو النكاث أو النجوية وخرجت على إمامة عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم لأسباب فقهية تتعلق بالإمامة، وهي بطلان إمامة المفضول مع وجود الفاضل.

- حملت الدولة الرستمية بذور فنائها في ذاتها بسبب الثورات والانشقاقات داخل الدولة الرستمية والتي تعود في محصلتها إلى ثلاثة أمور:

1/ الخلافات الفقهية حول: – مسائل الإمامة وسياسة عبد الوهاب في تعيين عماله.

– قضية تعدد الأئمة وحق الرعية في اختيار عمالها.

–إخلال الحاكم بشرعية الإمامة وإهدار رسومها كما حدث في عهد أفلح حفيد ابن رستم.

2/ صراع العنصريات القبلية البربرية "هوارة، نفوسة، لواتة، سدراتة، لماية" بالإضافة إلى الفرس والعرب القادمين من إفريقية.

3/ التناحر الأسري على الاستئثار بالإمامة.

سياسة بني رستم الداخلية:

عُرفت السياسة الداخلية لبني رستم بكثرة الفتن السياسية والانشقاقات المذهبية والصراعات العنصرية وكانت هذه الظاهرة أكثر بروزا عند الرستميين من غيرهم. وقد مرت هذه السياسة بثلاثة أدوار:

أ/ عهد عبد الوهاب بن رستم وابنه أفلح، ويمثل عهدهما سطوة الإمامة وقوتها وقدرتها على إحباط كافة الحركات المناوئة ذات الطابع المذهبي، "حركة النكار أتباع يزيد بن فندين، والنفاث أتباع فرج بن نصر وخلف بن أبي السمح" وقد ظهرت هذه الحركات المناوئة لثلاثة أسباب، الأول منها خلافات فقهية حول مسائل الإمامة وسياسة عبد الوهاب في تعيين عماله من نفوسة والعجم، والثاني مسألة تعدد الأئمة وحق الرعية في اختيار عمالها، والثالث الإخلال بشرعية الإمامة ورسومها على يد أفلح بن عبد الوهاب، الذي أثقل كاهل الإباضية بالضرائب والرسوم، وإن تراجع عن تلك السياسة في آخر عهده.

ب/ عهد أبي بكر بن أفلح وأخيه أبي اليقظان محمد وهو يمثل الصراع العنصري والقبلي وفيه خفت صوت الإمامة ووهنت قوتها، ولولا ضعف العصبيات المناوئة، وسياسة الملاينة التي اتبعها أبو اليقظان لسقطت الإمامة في هذا الدور

ج/ عهد أبي حاتم يوسف بن محمد واليقظان بن أبي اليقظان، وقد تميز هذا الدور بتداعي الإمامة واضمحلالها، وانفصام الصلة بين عاصمة الدولة وأقاليمها الشرقية، وتفاقم الخلافات داخل البيت

الرستمي وتدبيرهم المؤامرات والاغتيالات ضد بعضهم البعض من أجل الاستيلاء على الحكم، وقد ساهمت هذه العوامل مجتمعة في سقوط دولة بني رستم سنة 297هـ.

سياسة بني رستم الخارجية:

رغم جنوح أئمة الرستمية إلى الانعزال ومواجهة المشاكل الداخلية، إلا أنهم أقاموا علاقات خارجية مع جيرانهم يطبع الود بعضها والعداء البعض الآخر.

العلاقات العدائية:

كانت هذه العلاقات مع العباسيين والأغالبة والأدارسة لأسباب كثيرة منها:

أ –مع العباسيين: كان عداء الرستميين للعباسيين بسبب الكوارث التي حلت بإباضية المغرب، والتي تمت على يد ولاة المنصور والرشيد منذ عهد ابن الأشعث ومن تلاه من أمراء الأسرة المهلبية، والملاحظ أنه رغم العداء فقد كانت سياسة تحاشي الصدام بين الطرفين هي السائدة طول مدة حكم أمراء القيروان من عمال بني العباس، ومما زاد من حدة العداء بين الدولتين، تواطؤ الخلافة العباسية مع المارقين على بني رستم، حيث وجد هؤلاء في بغداد دعما وملاذا آمنا بعد إخفاق حركاتهم.

ب مع الأغالبة: الأغالبة كانوا سُنَّة على مذهب الإمام مالك وكانوا يدينون بالولاء لبني العباس رغم استقلالهم في الحكم وبالتالي فلا عجب أن يسود العداء بينهم وبين بني رستم، كما ساهمت الظروف الجغرافية في زيادة حدة العداء بينهما حيث أحاطت الدولة الرستمية بالدولة الأغلبية من الشرق والغرب والجنوب فكان تشابك الحدود وحركة القبائل سببا في حدوث التناحر والشجار بين الدولتين كما حدث في منطقة طرابلس.

ت مع الأدارسة: الدولة الإدريسية دولة شيعية قامت على حساب نفوذ الخوارج في المغرب الأقصى والأوسط وقد اتسمت العلاقة بينها وبين بني رستم بالعداء والصراع وإثارة القلاقل، وقد أسفر الصراع بينهما على تغلب الأدارسة واستكانة بني رستم.

العلاقات الودية:

مع إباضية المشرق والأمويين بالأندلس وبني مدرار

أ –مع إباضية المشرق: التوافق في المذهب والمساعدات التي تلقتها الدولة الرستمية الناشئة من إباضية المشرق وإرسال العلماء للتدريس في المغرب وانتقال إباضية المغرب لتلقي العلم في المشرق، وطلب الفتاوى في المسائل الفقهية المتعلقة بالسياسة والحكم خاصة، وفرح إباضية المشرق

بظهور إمامة ابن رستم في تاهرت... وانتهت هذه العلاقات بعزوف إباضية المشرق عن إخوانهم في المغرب بعدما تحولت الإمامة إلى ملك وراثي في عهد عبد الوهاب ومن بعده.

ب مع أمويي الأندلس: اشترك الطرفان في عداء بني العباس والأغالبة والأدارسة فأوجبت هذه الضرورة السياسية عقد أواصر الصداقة بين قرطبة وتاهرت، فجمعتهما مناوئة الأعداء رغم الخلافات التاريخية والمذهبية، عبد الرحمن بن معاوية "الداخل" قضى زمنا في تاهرت قبل رحيله إلى الأندلس وتأسيس دولته هناك سنة 138هـ، تبادل السفراء والهدايا بين أمراء الدولتين خاصة في عهد أفلح بن عبد الوهاب، قرب الأمير الأندلسي إليه الكثير من أبناء الأسرة الرستمية واتخذ منهم الوزراء والحجاب والقادة.

ت مع بني مدرار : سبق ذكرها حين الحديث عن العلاقات الخارجية في الدولة المدرارية.

الخاتمة: نتائج ظهور الفكر الخارجي في المغرب الإسلامي

بعد العرض المفصل لكرنولوجيا الفكر الخوارجي في المغرب الإسلامي خلص البحث إلى النتائج الآتية:

1/ كانت ثورات الخوارج تتأثر ضعفا وقوة بموقف الخلافة في المشرق واهتمامها بشؤون المغرب أو انصرافها عنها.

2/ تأثرت ثورات الخوارج قوة وضعفا أيضا، بشخصيات الولاة العرب وسياساتهم وما هم عليه من قوة وضعف وصراع على الحكم فاستفاد الخوارج من الصراعات القبلية بين اليمنية والقيسية.

3/ كانت ثورات الخوارج تزداد تأججا حين كان الولاة ينشغلون عنها بإنفاذ حملاتهم خارج المغرب، فيجد الخوارج الفرصة مواتية لتعبئة الجهود وإعلان الثورات – قامت ثورة ميسرة عندما كانت جيوش ابن الحبحاب تغزو صقلية–

4/ ارتبطت هزائم الخوارج بكفاءة القادة من خصومهم ودهائهم واستقرار أحوال الجند، بالإضافة إلى الصراعات المذهبية القائمة بينهم والتي كان يولدها الاختلاف في الرأي.

5/ تميزت حركات الخوارج في المغرب بالشمول وسعة الانتشار وقد كانت الثورة الأولى التي قادها ميسرة المطغري سنة 121هـ نموذجا اقتفاه ثوار المغرب الأدنى والأوسط من الصفرية والإباضية على حد سواء.

6/ اتسمت ثورات الخوارج في المغرب بالإصرار المستميت على البقاء رغم ما حل بهم من نكبات متوالية، فقد كانوا عقب تلك المحن يعملون على إعادة التنظيم ولم الشمل سرا بزعامة من سموه "إمام الدفاع" فإذا ما أنِسوا من أنفسهم قوة عاودوا الخروج وأعلنوا الثورة على الولاة، وهذا ما يفسر استمرار ثوراتهم قرابة نصف قرن، فلم تخب نارها حتى حققت أهدافها وقامت للخوارج دول ببلاد المغرب ذات طابع استقلالي.

7/ في أغلب الأحيان كانت تتصدر ثورات الخوارج قيادات من البربر "بَتْرا" و"بَرَانس"[28]

8/ لم يكن هناك تعاون بين الصفرية والإباضية على الرغم من اعتناق بطون القبيلة الواحدة لأحد المذهبين، والسبب في ذلك يعود إلى اختلافهما في العقائد والمبادئ، ما أدى في بعض الأحيان إلى اقتتالهما، كما حدث في القيروان حين أجْلَت الإباضيةُ الصفريةَ عنها في عهد أبي الخطاب المعافري، ولقد عُدَّ هذا الصراع من أهم أسباب ضعفهما ووقوعهما لقمة سائغة في يد جيوش ابن الأشعث.

9/ مما أضعف شوكة الخوارج ما حدث من خلافات وانشقاقات داخل كل فرقة بسبب الصراع القبلي والاختلاف الفقهي والتناحر الأسري للاستئثار بالإمامة.

10/ لقد وقع الخوارج في عين ما فروا منه ولأجله خرجوا على الحكام، وهو مبدأ توريث الحكم، والدليل على ذلك أن الإمامة لم تخرج عن إطار الأسرتين الحاكمتين في بني مدرار وبني رستم، رغم أن الروايات التاريخية تقول أن الإمامة كانت تتم عن طريق الشورى والاختيار، وهو قول يشبه إلى حد كبير ما يذاع في وسائل الإعلام الرسمي في الدول العربية الاستبدادية، من أن الانتخابات تتم في شفافية وديمقراطية وتسفر عن فوز مرشح السلطة بنسبة تسعة وتسعين بالمئة!

10/ أسفرت ثورات الخوارج في الأخير عن قيام دولتين لهم بالمغرب إحداهما للصفرية سنة 140هـ وتسمى الدولة المدرارية وعاصمتها سجلماسة بالمغرب الأقصى، والأخرى للإباضية سنة 161هـ وتسمى الدولة الرستمية وعاصمتها تاهرت بالمغرب الأوسط وقد سقطت هاتين الدولتين على يد الدولة الفاطمية سنة 296هـ، ورغم سقوط الدولتين فقد بقيت الآراء العقدية والسياسية للخوارج منتشرة في تلك المناطق، ولا أدل على ذلك من رفع الخوارج لشعار الثورات مرة أخرى ضد حكام الدولة الفاطمية.

11/ إذا كان بربر المغرب قد اعتنقوا مذهب الخوارج ليتخلصوا من جور عمال بني أمية وسياستهم المجحفة، فهذا لا يبرر ما قاموا به من أعمال القتل والتخريب والاعتداء على الناس وممتلكاتهم كما فعل الصفرية في

القيروان سنة 139هـ، كما أن الخروج على الحاكم الظالم وتغييره بقوة السلاح، أمر مرفوض شرعا إذا أدى إلى منكر أكبر منه، ولا منكر أكبر من قتل المسلمين لبعضهم، وتشتت صفوفهم، وتفرق كلمتهم.

12/ كانت الأوضاع الاقتصادية في المغرب متدهورة أثناء ثورات الخوارج بسبب الحروب التي هدمت الأبنية والأسوار وأحرقت الزروع وقضت على الماشية، ثم تحسنت هذه الأوضاع شيئا فشيئا بعد قيام الدول المختلفة واستقرار الأوضاع السياسية نسبيا بسبب اشتغال كل دولة بمشاكلها الداخلية وتنميتها المحلية.

13/ اهتم الخوارج الصفرية والإباضية بعد قيام دولهم بالتنمية الاقتصادية فازدهرت عندهم الزراعة والصناعة والتجارة، كما بقوا محافظين على الرعي والإهتمام بالثروة الحيوانية وقد ساعدهم على ذلك تواجد دولهم قرب أنهار كبيرة تنبض بالحياة، بالإضافة إلى كثرة المياه الباطنية، وسهولة حفر الآبار.

14/ تشكل خوارج المغرب من فسيفساء عرقية مختلفة وأحيانا متناقضة، ومع ذلك فقد عملت مبادئ المذهب الخارجي التي تحض على العدل والمساواة على توحيد شملهم، ففيهم البربر وهم "بَتْرٌ" يعيشون في البادية كمكناسة وزناتة، و"بَرَانسٌ" يعيشون في الحضر كصنهاجة ولمتونة، وفيهم من العرب وأقليات من الأفارقة والسودان واليهود.

15/ كان العداء العنصري ظاهرا في الثورات التي قام بها الخوارج ضد الحكام العرب، ونلمس ذلك من خلال "موقعة الأشراف" التي هزمت فيها جيوش الخلافة سنة 123هـ حيث كان شعار الخوارج فيها "الفتك بأمر العرب"

16/ برز دور المرأة في المجتمع الخارجي المغربي في النواحي السياسية والثقافية، خاصة في الأسرة الحاكمة التي برزت فيها أمثال جدة المنتصر بن محمد التي تولت الوصاية عليه وأمسكت بزمام السلطة في سجلماسة وابنة عبد الرحمن بن رستم التي برعت في علم الفلك والنجوم وكانت غزالة زوجة أبي اليقظان مالكة لأمره.

17/ لم تنقطع الصلة العلمية بين خوارج المغرب وشيوخهم في المشرق خاصة في البصرة التي كانت قبلة لتلقي العلوم الدينية والتعمق في أصول المذهب وفروعه فبرز منهم أمثال الشيخ مهدي النفوسي المتكلم وابن يانس الفقيه المفسر وغيرهما ممن أثروا المذهب الإباضي خاصة بمؤلفاتهم، وقاموا بمناظرات عديدة مع شيوخ المذاهب الأخرى من السنة والمعتزلة الواصلية والشيعة، وقد كان لهذه المناظرات دور في إثراء الحياة العقلية والثقافية في دولتي الخوارج والمغرب بشكل عام.

18/ تذكر كتب التاريخ أن الفضل في انتشار الإسلام بين السودان وأهالي غانة وجنوب الصحراء يعود إلى دولتي الخوارج الصفرية والإباضية عن طريق الصلات التجارية والبعثات الدعوية.

الهوامش:

[1] المرجع السابق ج1 ص 5

[2] شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ لِلقَاضِى عِيَاض المُسَمَّى إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم، عياض بن موسى اليحصبي السبتي (المتوفى: 544هـ) المحقق: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل [الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م] ج3 ص612

[3] رواه مسلم، باب ذكر الخوارج وصفاتهم [طبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت] ج2 ص 744

[4] الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، عبد القاهر البغدادي [دار الآفاق الجديدة – بيروت
الطبعة: الثانية، 1977] ص61

[5] تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ) [دار التراث – بيروت، الطبعة: الثانية – 1387 هـ] ج5 ص568

[6] المذاهب الإسلامية ببلاد المغرب من التعدد إلى الوحدة جامعة محمد الخامس سلسلة ندوات ومناظرات رقم 147 ط2008/1 ص66 والمقال لصاحبه عبد الحميد الفهري من كلية الآداب – صفاقس

[7] الخوارج في ميزان الفكر الإسلامي د محمد أبو سعدة ص 68

[8] المذاهب الإسلامية ببلاد المغرب، مرجع سابق ص67

[9] الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، عبد القاهر البغدادي [دار الآفاق الجديدة – بيروت
الطبعة: الثانية، 1977] ص54

[10] سلمة بْن سعد العنزي وقيل: سلمة بْن سَعِيد بْن صريم العنزي، الوافد عَلَى رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قيس بْن سلمة: أَنَّهُ وفد إِلَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو وجماعة من أهل بيته وولده، فاستأذنوا عليه، فدخلوا، فقال: " من هؤلاء؟ " قيل: هذا وفد عنزة. فقال: " بخ بخ بخ، نعم الحي عنزة، مبغي عليهم منصورون ". أخرجه الثلاثة. [أسد الغابة في معرفة الصحابة ، عز الدين ابن الأثير الجزري تحقيق: علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود [دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى، 1994 م] ج2 ص522]

[11] قال أحمد بن حنبل: كان عكرمة من أعلم الناس، ولكنه يرى رأي الصفرية، ولم يدع موضعا إلا خرج إليه: خراسان، والشام، واليمن، ومصر، وإفريقية، كان يأتي الأمراء فيطلب جوائزهم. ويقال: إنما أخذ أهل إفريقية رأي الصفرية من عكرمة. [تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام شمس الذهبي المحقق: عمر عبد السلام التدمري الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة: الثانية، 1413 هـ - 1993 م ج7 ص179]. وقال صاحب " معرفة الثقات" "عكرمة مولى بن عباس مكي تابعي ثقة وهو بريء مما يرميه الناس به من الحرورية. [معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم، أبو الحسن العجلى الكوفى المحقق: عبد العليم عبد العظيم البستوي الناشر: مكتبة الدار – المدينة المنورة – السعودية الطبعة: الأولى، 1405 – 1985 ج2 ص145]

[12] الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع، د. محمود اسماعيل، نشر وتوزيع، دار الثقافة الدار البيضاء، المغرب ط2/ 1985 ص24

[13] المرجع السابق ص 26

[14] عِيسَى بن يزِيد الْأسود من موَالِي الْعَرَب ورؤوس الْخَوَارِج، بَايعه صفرية مكناسة وأَقَامَ أَمِيرا عَلَيْهِم نَحْو خمس عشرَة سنة ثمَّ سخطوا إمرته ونقموا عَلَيْهِ بعض أَحْوَاله فعمدوا إِلَيْهِ وأوثقوه كتافا ووضعوه على قنة جبل إِلَى أَن هلك سنة خمس وَخمسين وَمِائَة. [الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، شهاب الدين السلاوي المحقق: جعفر الناصري/ محمد الناصري الناشر: دار الكتاب – الدار البيضاء ج1 ص180]

[15] أبو القاسم بن سمكو بن واسول بن نزول المكناسي، من قبيلة مكناسة: أول من تولى الإمارة من أصول (بني مدرار) . كان أبوه (سمكو) من المتفقهين في الدين، رحل إلى المدينة، وأخذ عن بعض التابعين. ونشأ صاحب الترجمة في بيت ثروة ووجاهة في قبيلته. وكانت له ماشية كثيرة، من غنم وسواه.

كان مذهب (الصفرية) بدأ ينتشر في قبائل مكناسة، فاتفق جماعة من معتنقيه، ومعهم (أبو القاسم) على تأمير فقيه منهم اسمه (عيسى بن يزيد فأمرَّوه، واستقروا في تلك الأرض فبدأ عمران (سجلماسة) سنة 140 هـ – 757 م. ثم أنكروا على أميرهم أشياء فعزلوه وقتلوه (سنة 155 هـ / 772 م) (1) وبايعوا (أبا القاسم) بالإمارة، فقام بها إلى أن مات سنة 167 (أو 168) فجأة في آخر ركعة من صلاة العشاء.
قال ابن خلدون: وكان إباضيا صفريا، وخطب في عمله للمنصور والمهدي من بني العباس.[الأعلام
خير الدين الزركلي الناشر: دار العلم للملايين الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو 2002 م ج7 ص 194، 195]

[16] سياسة الدعاة أو الزعماء من بني مدرار أو غيرهم وهم في السلطة ليست هي السياسة ذاتها وهم خارجها، وهو ما يدعم الرأي القائل بالفرق بين الدعوة والمبادئ نظريا والإمساك بالسلطة فعليا، والصفرية لما انتقلت من الدعوة إلى الحكم عادت إلى تطبيق نظام الوراثة واحتكار الحكم وهو ذات المبدأ الذي انطلقت منه لمحاربة الأمويين بالمشرق!!

[17] إلياس بن أبي القاسم بن سمكو: بويع بعد أبيه. وكان يدعى أبا الوزير (أو الوزير) واستمر إلى سنة 170 (أو 174) وخلع.[الأعلام خير الدين الزركلي الناشر: دار العلم للملايين الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو 2002 م ج7 ص195]

[18] اليسع (الأول) بن أبي القاسم: أخو إلياس الّذي قبله. شارك في الانتقاض عليه، وولي الإمارة بعده. وتلقب بالمنتصر. وكنيته أبو منصور. قال ابن خلدون: وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة، وهو الّذي أتم بناءها وتشييدها واختط بها المصانع والقصور. وقال ابن عذاري: كان جبارا عنيدا، ظفر بمن عانده من قبائل البربر، وأذلهم، وأظهر الصفرية، وبنى سورا حول سجلماسة. واستمر إلى أن مات سنة 208.[الأعلام خير الدين الزركلي ج7 ص195، 196]

[19] مدرار بن اليسع بن أبي القاسم: ولي بعد وفاة أبيه. وإليه نسبة (بني مدرار) الذين عرفت هذه الإمارة (أو الدولة) باسمهم. طالت مدته في الحكم. ويقال إنه هو الملقب بالمنتصر. وكان له ولدان: أحدهما (ميمون) وأمه أروى بنت عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت، والثاني يقال له (الأمير) تنازعا، واستبدا على أبيهما فتداولا الحكم في أيامه. ودامت الحرب بينهما ثلاث سنين.
ونزل مدرار عن الإمارة لميمون، فلم يرض عنه أولو الرأي في سجلماسة وخلعوه، فرحل إلى (درعة) وولوا أخاه (الأمير) . ومات مدرار سنة 253. [الأعلام خير الدين الزركلي ج7 ص 196]

[20] عبد الله بن إباض المقاعسي المري التميمي، من بني مرة بن عبيد بن مقاعس: رأس الإباضية، وإليه نسبتهم. اضطرب المؤرخون في سيرته وتاريخ وفاته. قال القلهاتي (4) وهو من مؤرخي الإباضية: " نشأ في زمان معاوية بن أبي سفيان، وعاش إلى زمان عبد الملك بن مروان، وكتب إليه بالسيرة المشهورة ". وأراد بالسيرة " رسالة " بعث بها عبد الله بن إباض إلى عبد الملك بن مروان، يقول فيها بعد البسملة والمقدمة: جاءني كتابك مع سنان بن عاصم إلخ (5) ويذكر فيها أنه أدرك معاوية ورأى عمله وسيرته. وفي الكامل للمبرد: قول ابن إباض، أقرب الأقاويل إلى السنّة. انتشر مذهبه قديما في بربر المغرب. قال ابن الخطيب (1) : " رغب الإباضيون من البربر في موادعة روح بن حاتم إلى أن توفي " وكانت وفاة روح سنة 174 هـ وعرف مذهب ابن إباض، باسمه، قبل هذا التاريخ. أكثر مترجميه يضبطون " إباض " بكسر الهمزة، ويقال: إن نسبة الإباضية إلى أباض – بضم الهمزة – وهي قرية بالعرض من اليمامة نزل بها نجدة ابن عامر ".
وأخبار الإباضيين كثيرة في التاريخ القديم والحديث. ولا يزال مذهبهم منتشرا، قال باحث من المعاصرين:" لا تزال بقية هؤلاء في بلاد الجزائر، وهم يعيشون على وتيرة منظمة وتقاليد عريقة، ولا تحكم بينهم محاكم الدولة، وإذا ماطل مدين دائنه دخل المسجد وأعلن ذلك، وحينئذ يقاطع الناس المدين فلا يسلمون عليه ولا يعاملونه حتى يوفي ما عليه " قلت: وهم في المشرق، اليوم، أكثر أهل " المملكة العمانية " ولهم فيها الإمامة والسيادة. أما في الجزائر فبلاد " وادي ميزاب " معظم سكانها إباضية، ولهم في كل بلد منها " مجلس " يسمى " مجلس العزابة " بفتح العين وتشديد الزاي، وهو جمع " عازب " ويعنون به من انقطع للعلم والدين، عزوبا عن الدنيا، ويتألف من نحو عشرة أشخاص يجتمعون في مسجد البلد، ويفصلون بين المتقاضين، ابتعادا عن الرجوع الى المحاكم غير الإسلامية، وقد كانت فرنسية، ومن أبى حكمهم أعلنوا البراءة منه فيقاطع حتى يردّ الحق ويتوب.[الأعلام، الزركلي ص61..64]

[21] بدر الدين هلال حمود اليحمدي الإباضي في كتابه: الأدلة المرضية في دحض ما نسب إلى الإباضية

[22] جابر بن زيد الأزدي البصري،(21 – 93 هـ = 642 – 712 م) أبو الشعثاء: تابعي فقيه، من الأئمة. من أهل البصرة. أصله من عُمان. صحب ابن عباس. وكان من بحور العلم، وصفه الشماخي (وهو من علماء الإباضية) بأنه أصل المذهب وأسه الّذي قامت عليه

آطامه. نفاه الحجاج إلى عمان. وفي كتاب الزهد للإمام أحمد: لما مات جابر ابن زيد قال قتادة: اليوم مات أعلم أهل العراق. [الأعلام، الزركلي، ج2 ص104]

[23] مسلم بن أبي كريمة التميمي بالولاء، البصري، أبو عبيدة توفي نحو 145هـ فقيه، من علماء الإباضية. أخذ المذهب عن جابر بن زيد، ثم صار مرجعا فيه تشد إليه الرحال. وكان أعور. ويقال له (القفاف) . وكان يحرّض على (الخروج) وذكر شخصا، فقال: (إن أراد الدين كما يزعم فليلحق بصاحبنا بحضرموت عبد الله بن يحيى فليقاتل بين يديه حتى يموت) وقيل له: ما يمنعك من الخروج ولو خرجت ما تخلف عنك أحد؟ فقال: ما أحب ذلك، ولو أني فعلت ما أحببت أن أقيم ما بين الظهر والعصر مخافة الأحكام [الأعلام، الزركلي مرجع سابق ج7 ص222، 223]

[24] أَبُو الخَطَّاب المَعَافِرِي (ت 144 هـ) عبد الأعلى بن السمح المعافري الحميري اليمني، أبو الخطاب: زعيم الإباضية في إفريقية. كان شجاعا بطلا. استولى أول أمره، على طرابلس الغرب سنة 140 هـ وحكم إفريقية كلها في بدء سنة 141 هـ ووجه إليه المنصور العباسي خمسين ألفا، بقيادة أمير مصر محمَّد بن الأشعث، فكاد يؤوب بالخيبة، لولا أمور وقعت بين أصحاب أبي الخطاب فارقه بعضهم من أجلها. وفاجأه ابن الأشعث في (سرت) على حين غرة، فقتله ومن بقي معه من أصحابه، وكانوا نحو اثني عشر ألفا. وأرسل رأسه إلى بغداد.[الأعلام، الزركلي ج3 ص 268، 269]

[25] يُجيز فقه الإباضية وجود إمامين في نفس الوقت إذا كان بينهما عدو يخشى بأسه أو بعدت المسافة بينهما، وهذا ما يفسر إمامة ابن رستم إباضية المغرب الأوسط في الوقت الذي كان فيه أبو حاتم الملزوزي إماما لإباضية المغرب الأدنى الذين لم يتوانوا في إعلان الولاء والبيعة لابن رستم بعد وفاة الملزوزي ونزح الكثير منهم إلى المغرب الأوسط للعيش في كنف الإمامة الجديدة والدولة الجديدة

[26] عبد الرحمن بن رستم بن بهرام (ت 171 هـ) : مؤسس مدينة تاهرت (بالجزائر) وأول من ملك من (الرستميين) وكان من فقهاء الإباضية بإفريقية، معروفا بالزهد والتواضع، وله كتاب في (التفسير) ولما تغلب أبو الخطاب (انظر ترجمته) على إفريقية استخلفه على القيروان. وزحف ابن الأشعث ودخل القيروان وقتل أبا الخطاب (سنة 144 هـ ففرّ عبد الرحمن بأهله وما خف من ماله، إلى الغرب، ولحقت به جماعات من الإباضية، فنزل بموضع (تاهرت) وكان غيضة بين ثلاثة أنهار، وفيها آثار عمران قديم، فبنى أصحابه فيها مسجدا من أربع بلاطات واختطوا مساكنهم (سنة 161 هـ وبايعوه بالإمامة، فأقام إلى أن توفي. وهو فارسي الأصل، كان جده بهرام من موالي عثمان ابن عفان.[الأعلام، الزركلي ج3 ص306]

[27] تؤرخ بعض كتب التاريخ لقيام الدولة الرستمية بهذا العام 144هـ

[28] المشهور أن أصول البربر اثنان: الأصل الأول: البرانس، بفتح الباء الموحدة والراء المهملة وألف ثم نون مكسورة وسين مهملة في الآخر. وهم: بنو بُرنس بن بربر. والمشهور منهم بالديار المصرية ويملك بلاد المغرب ثلاثة قبائل: هَوّارة ومصمودة وصهناجة الأصل الثاني: من البربر: البتر، بضم الباء الموحدة وسكون التاء المثناة من فوق وراء في الآخر. وهم: بنو مادغش الأبتر. والمشهور منهم: لَوَّاته، وزَنَاتة [قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، المحقق: إبراهيم الإبياري [دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني الطبعة: الثانية، 1402هـ - 1982 م] ص 167، 177]